المقدمة

(برولوج)

لم يكن هناك سماء زرقاء في ذلك العالم.

السماء كانت بلون الرماد، ثقيلة، ساكنة، كأن الضوء نفسه قد تعب. تحتها امتدت أرض متشققة رمادية، أنهارها جافة منذ زمن بعيد، وشموسها الحمراء الباردة تمنح ضوءًا بلا دفء. هناك، في الأخاديد العميقة المظلمة، كان شيء قديم يحتضر... ويبحث عن طريقة للبقاء.

وعي جماعي بلا أجساد حقيقية.

موجات رقيقة من الفكر والحاجة.

همس واحد يتكرر عبر الكوكب الميت:

«نحتاج إلى أوعية...»

فانطلقت بذرة صغيرة، أسرع من الضوء، عبر الفراغ الأسود.

قطعت مسافات لا تُقاس، وتجاوزت نجومًا ميتة وعوالمًا فارغة، حتى وصلت إلى كوكب أزرق صغير يدور حول نجم أصفر دافئ.

هبطت البذرة في ليلة هادئة فوق مدينة كبيرة تجري فيها الأنهار وتتكدس فيها الأجساد.

بحثت عن أول وعاء مناسب...

ووجدته في ثلاجة باردة داخل مشرحة قرب النهر.

ومن تلك اللحظة...

بدأ كل شيء.

الفصل الأول

العيادة الهادئة

كان المساء يهبط ببطء على حي المنيل، والضوء البرتقالي الأخير يلامس أسطح المنازل القديمة قبل أن يختفي خلف مباني القصر العيني. في عيادة صغيرة تقع في شارع جانبي هادئ، على مسافة قصيرة من المشرحة الكبرى، كان الدكتور مجدي فهمي يغسل يديه للمرة الثانية.

الماء ينساب باردًا على أصابعه النحيلة الطويلة. رفع رأسه ونظر إلى وجهه في المرآة المستطيلة المعلقة فوق المغسلة. وجه دقيق الملامح، شاحب قليلاً، وعينان بنيتان غائرتان من قلة النوم في الأسابيع الأخيرة. مرر إصبعه على خده كمن يتأكد أنه ما زال هو نفسه، ثم أطفأ صنبور المياه ومسح يديه بمنشفة بيضاء نظيفة.

نظر حوله في غرفة الكشف الضيقة. السرير الطبي في الزاوية، والطاولة الصغيرة التي عليها أجهزة الضغط والسماعة، والدولاب الزجاجي الذي يحتوي على بعض الزجاجات والأدوات البسيطة. كل شيء في مكانه، مرتب كما تركه في الصباح. ابتسم ابتسامة خفيفة وقال لنفسه بصوت خافت:

— يوم آخر انتهى... والحمد لله.

خرج إلى غرفة الانتظار. المكان صغير أيضًا: أربعة مقاعد خشبية قديمة، طاولة في الوسط عليها مجلات طبية متأخرة، ونافذة تطل على الشارع الهادئ. كان المريض الأخير لا يزال جالسًا في المقعد الأبعد، قرب النافذة. رجل في الخمسينيات تقريبًا، شاحب الوجه، يرتدي ملابس فضفاضة، ويداه مستندتان على ركبتيه دون حركة.

اقترب الدكتور مجدي منه وقال بلطف:

— انتهى الكشف يا أستاذ. يمكنك المغادرة الآن. الروشتة جاهزة على المكتب.

لم يجب الرجل.

أعاد الدكتور الكلام بصوت أوضح قليلاً:

— أستاذ...؟

ظل الرجل صامتًا. اقترب مجدي أكثر ومد يده ليلمس كتفه. في اللحظة التي لامست فيها أصابعه قماش السترة، أحس ببرودة غريبة تسري في أصابعه، كأنها لمست شيئًا ميتًا منذ وقت طويل. سحب يده بسرعة ونظر إلى وجه الرجل.

العينان مفتوحتان، لكنهما فارغتان تمامًا، أشبه بعيني سمكة ميتة. الجلد باهت ومترهل، والفم مغلق في خط مستقيم لا يعبر عن شيء.

همس الدكتور مجدي:

— ما هذا...؟

تراجعت خطوة إلى الوراء. قلبه بدأ يدق بسرعة غير مريحة. نظر إلى الباب الرئيسي، ثم إلى النافذة. كلاهما مغلق. لم يسمع صوت خروج، ولم يرَ أحدًا يمر في الممر.

مد يده مرة أخرى، هذه المرة بحذر أكبر، وهز كتف الرجل بلطف.

— أستاذ... هل تسمعني؟

فجأة، انزلق الرجل إلى الأمام ببطء، كأن دمية قُطعت خيوطها. سقط رأسه على صدره، ثم انزلق جسده كله من المقعد إلى الأرض بهدوء غريب، دون أن يصدر صوت ارتطام قوي.

صرخ الدكتور مجدي بصوت مكتوم وتراجع حتى لامس ظهره الحائط. وقف ثواني طويلة لا يتحرك، يحدق في الجسد الممدد على الأرض. ثم أجبر نفسه على الاقتراب. ركع بجانب الرجل ووضع إصبعيه على عنقه يبحث عن نبض.

لا شيء.

لا نبض، ولا تنفس، ولا أي علامة حياة.

شعر بقشعريرة باردة تتسلق عموده الفقري. نهض بسرعة وركض إلى الهاتف على مكتبه. رفع السماعة ليطلب الإسعاف، لكن يده توقفت في الهواء. نظر مرة أخرى إلى الجسد... ثم أدرك شيئًا أغرب.

الجسد لم يعد هناك.

المقعد فارغ. الأرض فارغة. لا أثر للرجل الذي كان جالسًا منذ لحظات.

توقف الدكتور مجدي في مكانه، السماعة ما زالت في يده. نظر حوله بسرعة مجنونة. تحت المقعد وجد منديلاً أبيض صغيرًا مطويًا بعناية. التقطه بأصابع مرتجفة. في وسط المنديل نقطة داكنة صغيرة، كأنها دم جاف منذ أيام.

وقف في غرفة الانتظار الصامتة، والمنديل في يده، والضوء الوحيد يأتي من مصباح المكتب الضعيف. خارج النافذة كان الشارع فارغًا تمامًا، والليل قد اكتمل سواده.

همس لنفسه، والصوت يكاد لا يُسمع:

— أين ذهب...؟

لكن الإجابة لم تأتِ.

فقط صمت ثقيل يملأ العيادة الصغيرة، وشعور غامض بأن شيئًا ما قد بدأ... وأن الظلام لم يعد فارغًا كما كان.

الفصل الثاني

الجثث المختفية

في الصباح التالي، كان الدكتور مجدي يجلس خلف مكتبه الصغير ويده ترتجف قليلاً وهو يمسك بفنجان القهوة. لم ينم أكثر من ساعتين. كلما أغلق عينيه عاد إليه مشهد الرجل الشاحب وهو ينزلق من المقعد، ثم اختفاؤه التام كأن الأرض ابتلعته.

رنّ هاتف العيادة فجأة. رفع السماعة بصوت أجش:

— عيادة الدكتور مجدي فهمي...

جاءه صوت مألوف، متعب، ينتمي إلى صديقه القديم الدكتور حسين، رئيس قسم التشريح في مشرحة القصر العيني.

— مجدي؟ صباح الخير... أو لعله ليس صباحًا سعيدًا.

شعر مجدي بثقل في صدره.

— ما الأمر يا حسين؟

صمت قصير في الطرف الآخر، ثم قال حسين بصوت منخفض كمن يخشى أن يسمعه أحد:

— حدث شيء غريب الليلة الماضية. اختفت جثة أخرى من الثلاجة رقم (7). هذه المرة الثالثة خلال عشرة أيام.

تصلب مجدي في مقعده.

— ثالثة؟ هل أنت متأكد؟

— متأكد تمامًا. الجثة كانت لشاب اسمه عزيز حسن، توفي في حادث سيارة منذ يومين. وضعناها في الثلاجة مساء أمس بعد التشريح الأولي. هذا الصباح... لا أثر لها. الباب مغلق كما هو، والأقفال سليمة، لكن الجثة اختفت.

سأله مجدي بصوت خافت:

— والكاميرات؟

ضحكة قصيرة مريرة خرجت من حسين.

— الكاميرات كلها تعطلت في الليلة نفسها. الفني قال إن هناك تشويشًا غريبًا في الأسلاك، كأن شيئًا ما امتص الإشارة. لا تسجيلات على الإطلاق بين منتصف الليل والساعة الرابعة فجرًا.

صمت الرجلان لحظة. ثم أضاف حسين وهمس يكاد يختفي:

— وهناك أمر آخر... الحارس الليلي، الرجل العجوز الذي يعمل معنا منذ خمسة عشر عامًا، أقسم لي هذا الصباح أنه رأى شخصًا يخرج من الباب الخلفي للمشرحة حوالي الثانية بعد منتصف الليل. قال إن الرجل كان يمشي بطريقة غريبة... بطيئة جدًا، وملابسه فضفاضة عليه كأنها ليست له. وصوته... عندما مرّ بجانب الحارس همس بكلمة واحدة فقط، بصوت أشبه بالغرغرة: «قريبًا».

شعر مجدي أن الدم يتراجع عن وجهه. تذكر المنديل الأبيض والنقطة الداكنة، والرجل الذي اختفى من عيادته الليلة السابقة.

قال بصوت مرتجف:

— هل يمكنني المرور عليك اليوم؟

— تعال بعد الظهر. سأكون في المكتب.

أنهى المكالمة وجلس ينظر إلى الجدار أمامه دون أن يرى شيئًا. بعد ساعة قام وارتدى معطفه وخرج من العيادة. الشارع كان مزدحمًا كعادته، لكن كل الوجوه بدت له شاحبة، وكل العيون تبدو أعمق مما ينبغي.

وصل إلى المشرحة بعد الظهر. الرائحة المألوفة للفورمالين والمطهرات استقبلته بمجرد أن دخل الممر الطويل البارد. وجد حسين في مكتبه الصغير، يفرك جبينه بإصبعيه.

أغلق الباب خلفه وجلس. أخرج حسين ملفًا رقيقًا ودفعه إليه.

— هذا كل ما لدينا عن عزيز حسن. شاب في التاسعة والعشرين، لا أهل له تقريبًا، كان يعمل سائقًا. الجثة كانت سليمة نسبيًا بعد الحادث... والآن لا نعرف أين هي.

فتح مجدي الملف ونظر إلى الصورة المرفقة. وجه شاب عادي، لكن شيئًا ما في ملامحه جعله يتوقف. الشحوب، وشكل العينين... بدا له أن الوجه مألوف بطريقة مزعجة.

رفع رأسه وقال:

— هل حدث أي شيء آخر غريب في الأيام الأخيرة؟ مرضى؟ زوار؟

هز حسين رأسه ببطء.

— لا شيء معلن. لكن الحراس يتهامسون. يقولون إن هناك أصواتًا خفيفة تأتي من الثلاجات في الليل أحيانًا... كأنها حركات بطيئة من الداخل. وأنا لا أصدق هذه الخرافات، لكن... بعد اختفاء ثلاث جثث، لم أعد أعرف ماذا أصدق.

خرج مجدي من المشرحة والظلام بدأ يحل. سار في الشارع بخطوات ثقيلة، وفي جيبه صورة عزيز حسن مطوية. كلما نظر إلى الوجوه من حوله، شعر أن أحدهم قد يكون هو... أو شيئًا مثله.

عندما وصل إلى عيادته وفتح الباب، وجد المنديل الأبيض ما زال على مكتبه حيث تركه. أخذه بين أصابعه ونظر إلى النقطة الداكنة مرة أخرى.

همس لنفسه:

— ثلاث جثث... ورجل يختفي من أمامي...

ثم أغلق الباب خلفه، وأطفأ الأنوار واحدة بعد الأخرى، وبقي المصباح الصغير على المكتب يضيء وجهه الشاحب في الظلام.

في تلك الليلة، لم يستطع أن يكتب في دفتر ملاحظاته كلمة واحدة.

كل ما استطاع فعله هو الجلوس والصمت... والانتظار.

الفصل الثالث

الأحلام والرؤى

في الليلة الثالثة بعد اختفاء الجثة الثالثة، نام الدكتور مجدي متأخرًا بعد أن ظل يحدق في سقف غرفته الصغيرة فوق العيادة حتى تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. عندما أطبق جفنيه أخيرًا، لم يأته النوم كالعادة... بل سقط فيه كمن يسقط في بئر مظلمة.

وجد نفسه واقفًا في غرفة انتظار عيادته. المكان مظلم إلا من ضوء خافت أزرق اللون يتسلل من النافذة المغلقة. على المقعد الأبعد، قرب النافذة، جلس رجل. الملامح نفسها التي رآها في صورة عزيز حسن، لكنها أكثر شحوبًا وترهّلاً. العينان مفتوحتان على اتساعهما، رماديتان، فارغتان، أشبه بعيني سمكة ميتة طُرحت على الشاطئ منذ أيام. الجلد باهت ومجعّد، واليدان ممتدتان على الركبتين داخل كمّين فضفاضين كأنهما ليسا له.

ابتسم الرجل ببطء، ابتسامة لم تلامس العينين أبدًا، وقال بصوت الغرغرة الذي سمعه مجدي في حلمه السابق:

— نحن كثيرون... وقد استولينا على الجثة.

حاول مجدي أن يتكلم، أن يصرخ، أن يتحرك، لكن جسده كان ثقيلاً كأنه مغمور في طين لزج. اقترب الرجل منه دون أن يرفع قدميه عن الأرض، كأنه ينزلق. مد يدًا باردة لمس بها جبهة مجدي، فهمس مرة أخرى:

— قريبًا... سيكون لنا جسد حي.

استيقظ الدكتور مجدي وهو يجلس في فراشه فجأة، والعرق يبلل قميصه حتى الظهر. قلبه يطرق صدره كطبل مجنون. مد يده إلى مصباح السرير وأشعله. الغرفة فارغة. الباب مغلق. لا أحد.

نظر إلى الساعة: الثالثة والنصف فجرًا.

جلس على حافة الفراش دقائق طويلة، يتنفس بصعوبة، ثم قام وذهب إلى الحمام وغسل وجهه بماء بارد مرات عدة. عندما رفع رأسه إلى المرآة، بدا له وجهه شاحبًا أكثر من المعتاد، وعيناه غائرتين كأنهما امتصتا شيئًا من سواد الحلم.

في الصباح حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر مجرد إرهاق. قال لنفسه وهو يحضر القهوة:

— أنت طبيب... تعرف كيف يعمل العقل تحت الضغط. اختفاء الجثث، الرجل الذي اختفى من العيادة، قلة النوم... كل هذا يكفي لصنع كوابيس.

لكن خلال النهار بدأت الرؤى تتسلل إليه وهو مستيقظ.

بينما كان يفحص مريضة مسنة، رأى للحظة خاطفة وجه الرجل الشاحب ينعكس في مرآة الدولاب الزجاجي خلفها. رفّ جفناه بسرعة ونظر مرة أخرى... لم يكن هناك شيء سوى أدواته الطبية المرتبة.

في فترة بعد الظهر، بينما كان يكتب روشتة، سمع صوت الغرغرة الخافت في أذنه اليسرى، كأنه همس قادم من مسافة بعيدة جدًا. رفع رأسه فجأة ونظر حوله. العيادة فارغة. الشارع خارج النافذة هادئ.

في المساء جلس أمام دفتر ملاحظاته وكتب بخط غير منتظم:

«الحلم تكرر. الوجه هو نفسه وجه عزيز حسن تقريبًا. العينان كعيني السمكة. الصوت نفسه. يقول "نحن كثيرون". هل أنا أفقد تركيزي؟ أم أن شيئًا حقيقيًا يتسلل إليّ؟»

أغلق الدفتر وتركه على المكتب. قام وأطفأ الأنوار، لكنه لم يستطع أن يصعد إلى غرفته فورًا. ظل واقفًا في غرفة الانتظار ينظر إلى المقعد الفارغ قرب النافذة، كأنه ينتظر أن يظهر الجسد مرة أخرى.

عندما نام أخيرًا في الليلة التالية، عاد الحلم، لكن هذه المرة كان أوضح وأكثر تفصيلاً. الرجل الشاحب لم يكن جالسًا وحده. خلفه، في الظل، كانت هناك أشكال أخرى باهتة، كثيرة، تتحرك ببطء كأنها تنتظر دورها. ومد الرجل يده مرة أخرى نحو جبهة مجدي وهمس:

— الجسد الميت وسيلة فقط... نحن نحتاج إلى الأحياء.

استيقظ مجدي هذه المرة وهو يصرخ بصوت مكبوت. جلس في الظلام يتنفس بسرعة، ويده تمسك بحافة الفراش بقوة حتى ابيضّت مفاصله.

من تلك الليلة، لم يعد النوم مكانًا آمنًا.

والرؤى بدأت تقتحم عليه ساعات اليقظة شيئًا فشيئًا، كأنها ظلال تتعلم كيف تمشي في النهار.

الفصل الرابع

الحالات الغريبة

في الأيام التالية، لم تعد العيادة مكانًا هادئًا كما كانت.

جاءه في الصباح رجل في الأربعينيات، يشكو من صداع مستمر منذ ثلاثة أيام. جلس على الكرسي المقابل للدكتور مجدي ورفع رأسه ببطء. كان وجهه شاحبًا أكثر مما ينبغي لرجل يعمل تحت الشمس، وعيناه بدتا فارغتين كأنهما تنظران إلى شيء بعيد خلف جدار الغرفة. عندما تكلم، خرج الصوت أجشًا ومتقطعًا، أشبه بمن يتحدث من تحت الماء:

— الصداع... هنا.

وأشار إلى جبهته بأصابع بطيئة الحركة.

فحصه مجدي بعناية. الضغط طبيعي، والقلب منتظم، ولا علامات ظاهرة لالتهاب أو مشكلة عصبية واضحة. كتب له مسكنًا خفيفًا وطلب منه العودة بعد يومين إن لم يتحسن. الرجل وقف ومشى نحو الباب بخطوات متثاقلة، وقبل أن يخرج التفت وقال بصوت الغرغرة الخافت نفسه الذي كان يطارد مجدي في أحلامه:

— قريبًا... الكل سيكون بخير.

أغلقت الباب خلفه، ووقف مجدي مكانه ثواني طويلة قبل أن يعود إلى مكتبه ويكتب في دفتر ملاحظاته:

«مريض جديد. شحوب غير مبرر. عينان فارغتان. صوت غريب. ذكر كلمة "قريبًا".»

في اليوم التالي جاءت امرأة شابة تحمل طفلها الصغير. قالت إن الطفل لا ينام منذ ليلتين ويحدق في السقف كأنه يرى شيئًا. فحص مجدي الطفل فلم يجد شيئًا غير طبيعي، لكن بينما كانت الأم تتحدث، لاحظ أن عينيها هما أيضًا تحملان ذلك الفراغ البارد نفسه. وعندما همّت بالخروج، لمست يدها يده للحظة، فشعر ببرودة تشبه تلك التي أحس بها عندما لمس كتف الرجل المختفي.

كتب مرة أخرى:

«حالة ثانية. البرودة نفسها. الفراغ في العيون.»

أما الحالة الثالثة فكانت أغرب.

جاءه رجل مسن يعرفه منذ سنوات، جار قديم في الحي. جلس بصمت طويل قبل أن يقول بصوت منخفض:

— أشعر أن شيئًا يسكن داخلي يا دكتور... شيئًا ليس لي.

حاول مجدي أن يطمئنه، وفحصه، وأعطاه مهدئًا خفيفًا. خرج الرجل، وفي الليلة نفسها اتصل ابنه ليخبره أن والده وُجد ميتًا في فراشه، هادئًا تمامًا، كأن الروح غادرت دون مقاومة. نقلت الجثة إلى مشرحة القصر العيني... الثلاجة رقم (7) مرة أخرى.

بدأ الدكتور مجدي يسجل كل شيء بدقة مبالغ فيها. الوقت، الملامح، نبرة الصوت، درجة حرارة اليد عند المصافحة، الكلمات الغريبة التي تُقال في نهاية الكشف. امتلأت صفحات الدفتر بملاحظات متلاحقة، وبعضها كتبها بخط مرتجف في منتصف الليل بعد أن يوقظه حلم جديد.

وفي أحد الأصباحات، بينما كان يستمع إلى الراديو القديم في العيادة على موجة الأخبار المحلية، سمع المذيع يقول بجملة عابرة:

«رصدت محطة الرصد الفلكي في حلوان تشويشًا غير معتاد في الإشارات الراديوية القادمة من جهة معينة في السماء خلال الليالي الثلاث الماضية. المختصون يؤكدون أنه على الأرجح اضطراب جوي أو تداخل أرضي...»

توقف مجدي عن الحركة. أعاد الجملة في رأسه مرتين. ثم فتح الدفتر وكتب تحت آخر ملاحظة:

«تشويش راديوي... من السماء. في الليالي نفسها التي اختفت فيها الجثث.»

رفع رأسه ونظر إلى النافذة. الشارع يبدو عاديًا، والناس يمرون ككل يوم، لكن شيئًا في الهواء تغيّر. كأنه أصبح أثقل، أو أقرب.

في تلك الليلة جلس أمام مكتبه والطاولة مليئة بالأوراق والملاحظات والصورة القديمة لعزيز حسن. وضع يده على الدفتر وأغلق عينيه لحظة، فسمع مرة أخرى ذلك الهمس البعيد الذي يشبه الغرغرة:

— نحن كثيرون...

فتح عينيه بسرعة. الغرفة فارغة. لكن الشعور لم يعد يغادره:

أن الحالات الغريبة ليست مصادفة، وأن شيئًا ما يتسلل بهدوء عبر أجساد المرضى، عبر المشرحة، عبر الأحلام... ويقترب من بابه أكثر فأكثر.

الفصل الخامس

الاقتراب

في الليلة السابعة بعد اختفاء الجثة الثالثة، لم يعد الدكتور مجدي قادرًا على التظاهر بأن الأمور ما زالت تحت السيطرة.

كان يجلس في غرفة الانتظار بعد منتصف الليل، والمصباح الوحيد على المكتب يضيء دائرة صفراء باهتة حوله. دفتر الملاحظات مفتوح أمامه، والصفحات ممتلئة بخطه المتلاحق. في الزاوية وضع صورة عزيز حسن، وفي جواره المنديل الأبيض الذي عثر عليه في الليلة الأولى، والنقطة الداكنة ما زالت واضحة كأنها لم تجف تمامًا.

خارج النافذة كان الشارع فارغًا، لكن مجدي كان يشعر بأن أحدًا يقف في الظلام ويراقبه. كلما رفع رأسه نحو الزجاج، تخيّل حركة بطيئة عند حافة الضوء، أو ظلًا ينزلق خلف عمود الإنارة البعيد. كان ينهض ويبتعد عن النافذة، ثم يعود بعد دقائق كمن يجبر نفسه على التأكد.

في ذلك المساء حدثت ثلاث حوادث صغيرة لم يعد يستطيع تجاهلها.

الأولى: عندما عاد من المطبخ وفنجان القهوة في يده، وجد المقعد القريب من النافذة قد تحرك قليلاً عن مكانه. كان يعرفه تمامًا؛ هو نفسه لم يلمسه منذ أيام.

الثانية: سمع صوت خطوات بطيئة في الممر الخارجي للعيادة، خطوات متثاقلة كأنها لشخص يجر قدميه. خرج بسرعة وفتح الباب... الشارع فارغ، والممر مضاء بضوء أصفر ضعيف، ولا أثر لأحد.

الثالثة: عندما عاد إلى مكتبه وجد أن صفحة جديدة في الدفتر قد كُتب عليها كلمة واحدة فقط، بخط غير خطه، مائل وثقيل:

«قريبًا»

وقف ينظر إلى الكلمة وقتًا طويلاً. لم يكتبها هو. وهو متأكد من ذلك. أغلق الدفتر بعنف وتركه، ثم جلس على الكرسي ودفن وجهه في يديه.

في الصباح التالي قرر أن يعود إلى المشرحة بنفسه.

ذهب دون موعد. وجد حسين في غرفة التشريح، يرتدي القفازات ويفحص أوراقًا. عندما رآه، أغلقت الباب خلفهما وقال بصوت منخفض:

— أنت أيضًا لم تعد تنام جيدًا، أليس كذلك؟

هز مجدي رأسه ولم يجب. سار الاثنان نحو صف الثلاجات. توقف حسين أمام الثلاجة رقم (7) وقال:

— ما زالت فارغة. ورقم (9) أيضًا. والليلة الماضية سمعت الحارس يقسم مرة أخرى أنه رأى الرجل نفسه... يمشي في الممر الداخلي، ثم يختفي عند الباب الخلفي.

سأله مجدي:

— هل فتحت الثلاجات الأخرى؟

— فتحتها كلها هذا الصباح. لا شيء. لكن... الرائحة تغيرت. أصبحت أكثر برودة بطريقة ما، كأنها تأتي من مكان أبعد من هذه الجدران.

خرج مجدي من المشرحة والشمس تميل نحو الغروب. سار في الشارع بخطوات سريعة، وكلما مرّ بوجه شاحب أو عينين غائرتين أحس بأن الشيء الذي يبحث عنه قد يكون أقرب مما يظن.

عندما وصل إلى العيادة وفتح الباب، وجد أن الهواء داخلها أصبح أثقل. كأنه شخص ما جلس هنا منذ ساعات وترك خلفه أثرًا غير مرئي. أضاء كل الأنوار، وفتّش الغرف واحدة واحدة، ثم أغلق الباب بالمفتاح من الداخل ووضع سلسلة إضافية لم يكن يستخدمها من قبل.

جلس خلف المكتب وأخرج الدفتر مرة أخرى. كتب بخط ثابت هذه المرة، رغم أن أصابعه كانت باردة:

«الحوادث تتزايد. الخطوات في الممر. الكلمة المكتوبة دون علمي. الشعور بالمراقبة لم يعد وهمًا. الجثث المختفية، المرضى الغريبون، الأحلام، التشويش الراديوي... كلها تشير إلى شيء واحد. شيء يقترب. وأنا أعرف، بطريقة ما، أنه سياتي إلى هنا.»

رفع رأسه ونظر إلى الباب الرئيسي.

في الخارج كان الليل قد اكتمل. لا صوت سيارات قريبة، ولا أصوات بشر. فقط صمت كثيف يضغط على الجدران.

همس لنفسه، والصوت كاد يضيع في الفراغ:

— متى...؟

ثم أطفأ المصباح، وجلس في العتمة، ينتظر.

لأنه بات يعرف الآن، بيقين لا يقبل الشك، أن الزيارة لم تعد مسألة أيام...

بل مسألة ساعات.

الفصل السادس

الزائر

كان المساء قد هبط بالكامل على حي المنيل، والعيادة غارقة في صمت ثقيل بعد أن أغلق الدكتور مجدي الباب بالمفتاح والسلسلة الإضافية. جلس خلف مكتبه، دفتر الملاحظات مفتوح أمامه، والمصباح الضعيف يلقي دائرة ضوء صفراء باهتة على الأوراق. منذ ساعات وهو يحاول أن يقنع نفسه بأن الانتظار مجرد وهم ناتج عن الإرهاق والأحلام، لكن جسده كان يرفض أن يسترخي.

فجأة... صرير الباب الخارجي.

رفع مجدي رأسه بسرعة. السلسلة ما زالت في مكانها، لكنه سمع صوتًا خفيفًا كأن أحدًا يحاول دفع الباب من الخارج ببطء شديد. نهض ووقف مكانه، قلبه يبدأ في الخفقان المتسارع. الخطوات جاءت بعد ذلك: بطيئة، متثاقلة، تقترب من الباب الداخلي لغرفة الانتظار.

فتح الباب دون أن يُطرق.

دخل الرجل.

كان شاحب الوجه إلى درجة مَرَضية، عيناه رماديتان فارغتان أشبه بعيني سمكة ميتة، وجلده ذابل باهت كأنه لم يرَ الشمس منذ زمن طويل. يداه ممتدتان داخل كمّين فضفاضين، وملابسه واسعة عليه كأن أحدًا ألبسها لجثة. سار بضع خطوات ثم توقف في منتصف الغرفة، ونظر إلى الدكتور مجدي مباشرة.

قال بصوت غريب، أشبه بصوت الغرغرة، وكل كلمة تخرج منه ترسل قشعريرة باردة في ظهر مجدي:

— الدكتور مجدي فهمي؟

لم ينتظر الرد. استمر يتكلم دون أن يرمش:

— أنا شخص شاحب الوجه، بعينين أشبه بعيني السمكة، وجلد ذابل باهت اللون، ويدين ممتدتين، وملابس فضفاضة لا تناسبني كأنني أرتدي جوالاً، وصوتي أشبه بصوت الغرغرة... وكلما تحدثت أصابتك قشعريرة.

مال الدكتور مجدي إلى الأمام رغمًا عنه، وعيناه تتسعان. تذكر الحلم، والصورة، والرجل الذي اختفى من المقعد. حاول أن يتكلم فخرج صوته أجشًا:

— من... أنت؟

ابتسم الرجل ابتسامة بطيئة لم تلامس العينين، وأخرج من جيب سترته المترهلة ورقة مطوية كانت تبدو كصفحة من جريدة قديمة. رماها على المكتب. التقطها مجدي بيد مرتجفة. كانت صورة لوجه مطابق تمامًا لوجه الزائر، وتحتها سطر واضح:

«المرحوم عزيز حسن، الذي اختفت جثته اختفاءً غامضًا الليلة الماضية من الثلاجة رقم (7) بمشرحة القصر العيني.»

رفع مجدي عينيه ببطء. الزائر كان ما زال يبتسم.

— هذه هي الجثة — قال الزائر وأشار إلى نفسه بأصابع مجعّدة الجلد. — ألم تلاحظ الصورة؟ نحن كثيرون... وقد استولينا على الجثة.

حاول مجدي أن يتحرك نحو الباب، لكن الزائر أخرج مسدسًا قديمًا من داخل السترة ولوّح به بهدوء.

— ليس من الحكمة. نحن لا نراقب أفكارك فحسب... بل نتوقع النتائج أيضًا.

تجمد مجدي في مكانه. شعر كأن جدارًا غير مرئي قد أغلق عليه. الزائر استمر في الكلام بصوته الغريب، وكأن الوقت لا يعنيه:

— أخذنا هذه الجثة، وأذبنا الدم المتجمد، وحركنا العضلات الميتة حتى أصبحت قادرة على السير. ذكريات صاحبها ما زالت مسجّلة... ونحن نستخدمها لنفكر بأسلوبكم ونتحدث بلغتكم. الجسد الميت وسيلة انتقال فقط. نحن نحتاج إلى أجساد حية... خاصة تلك التي تحمل عقولاً جيدة.

توقف لحظة، ثم أضاف وهمسه يملأ الغرفة:

— وأنت يا دكتور... أحد مرضى عزيز حسن السابقين. هو أخبرنا عنك.

شعر مجدي أن الأرض تميد تحته. كل الأحلام، وكل الملاحظات، وكل الجثث المختفية، كانت تؤدي إلى هذه اللحظة. نظر إلى المسدس، ثم إلى الوجه الشاحب، وحاول أن يسيطر على أفكاره، لكن الزائر ضحك ضحكة قصيرة مبحوحة:

— لا جدوى. نحن نقرأ كل شيء... حتى خوفك الآن.

في الخارج، كانت الرياح تتحرك بين أشجار الشارع بهدوء. أما داخل العيادة الصغيرة، فكان الصمت قد انكسر إلى الأبد، وبدأت الزيارة التي انتظرها الدكتور مجدي طوال الليالي الماضية... دون أن يعرف كيف ينهيها.

الفصل السابع

الفتاة

كان المسدس ما زال مصوبًا نحو صدر الدكتور مجدي عندما سمعا معًا صوت أقدام خفيفة تقترب من الباب الخارجي.

توقف الزائر عن الكلام للحظة، ومال برأسه كأنما يستمع إلى شيء أبعد من الجدران. ثم ابتسم ابتسامته البطيئة نفسها وقال بصوته الغرغري:

— لقد جاءت... في الوقت المناسب تمامًا.

قبل أن يتمكن مجدي من الرد، صرّ الباب صريرًا خفيفًا ودخلت فتاة.

كانت في أوائل العشرينيات، نحيفة، شعرها أسود طويل، ووجهها شاحب من التعب أو الخوف. توقفت عند عتبة غرفة الانتظار عندما رأت الرجل الغريب والمسدس في يده. اتسعت عيناها فجأة، وتراجعت خطوة إلى الوراء.

قال الزائر دون أن يحوّل المسدس عن مجدي:

— ادخلي. لا تحاولي الهرب... فنحن نعرف ما تفكرين فيه الآن.

دخلت الفتاة بخطوات بطيئة مرتعشة، وعيناها تنتقلان بين الدكتور مجدي والوجه الشاحب. همست بصوت ضعيف:

— جئت... أستدعي الطبيب. هناك حالة عاجلة في البيت المجاور...

لم يكمل أحد كلامها. الزائر تحرك نحوها ببطء، والمدس ما زال في يده الأخرى. قال:

— ستكونين مفيدة جدًا. جسد حيّ، صغير، سليم... أفضل من الجثة بكثير.

صرخت الفتاة وحاولت الالتفاف نحو الباب، لكن الزائر كان أسرع. أمسك بذراعها بقوة غير بشرية وسحبها إلى داخل غرفة العمليات المجاورة. سقطت على الأرض، فرفعها ودفعها نحو مائدة العمليات الجلدية.

صرخ مجدي:

— اتركها!

لوحة الزائر المسدس مباشرة إلى رأسه هذه المرة.

— اقترب منها وقيّديها. بسرعة. أو أطلق النار عليك الآن وأستخدم جسدك بعدها.

كانت يدا مجدي ترتجفان وهو يتحرك. التقط الشرائط الجلدية المستخدمة عادة لتثبيت المرضى أثناء العمليات البسيطة، وربط ساقي الفتاة ثم يديها رغم مقاومتها الضعيفة. كانت تبكي بصوت مكبوت وتقول:

— أرجوك... من هذا؟ ماذا يحدث؟

همس لها مجدي وهو ينحني قرب أذنها:

— حاولي أن تهدئي... سأجد طريقة.

لكن الزائر سمع الهمسة وضحك ضحكة قصيرة مبحوحة:

— لا توجد طريقة. نحن نقرأ أفكارك يا دكتور. أنت تفكر الآن في الزجاجة الزرقاء على الرف... الأثير. تريد أن تستخدمها. فكرة جيدة... لكنها لن تنجح.

اقترب من الفتاة ووضع أصابعه الباردة على جبهتها. أغمضت عينيها فجأة وارتعش جسدها كله كأنها تُصعق. قال الزائر بصوت أهدأ، كأنه يشرح درسًا:

— سندخل من طريق الفم هذه المرة. أسهل. وبعد أن نستولي عليها... سنستخدمها للوصول إلى آخرين.

حاولت الفتاة أن تصرخ، لكن صوتها خرج مبحوحًا ثم اختفى. رأسها مال إلى الجانب، وجسدها استرخى فجأة فوق المائدة كأنها فقدت الوعي... أو كأن شيئًا آخر بدأ يحل محلها.

شعر مجدي أن الدم يتجمد في عروقه. تقدم خطوة غريزية، فارتفع المسدس مرة أخرى وصوّب إلى قلبه مباشرة.

— ابتعد — قال الزائر. — أو تنتهي قصتك هنا، ونبدأ نحن قصتنا بجسدك.

في تلك اللحظة، كان الباب الخارجي للعيادة يُفتح مرة أخرى...

وخطوات ثقيلة تقترب في الممر.

الفصل الثامن

عبد القادر

الخطوات الثقيلة اقتربت بسرعة من باب غرفة العمليات. قبل أن يتمكن الزائر من الالتفات تمامًا، اندفع الباب وانفتح بقوة، وظهر عبد القادر.

كان رجلاً ضخمًا عريض الكتفين، قصير الشعر، جاحظ العينين قليلاً من المفاجأة. توقف لحظة عندما رأى الفتاة مقيدة على مائدة العمليات، والرجل الشاحب يمسك بالمسدس، والدكتور مجدي يقف مشدودًا إلى الجدار. لم يسأل. لم يتردد.

هجم.

اندفع عبد القادر نحو الزائر كثور هائج. انطلقت رصاصة أولى اخترقت الهواء واصطدمت بالدولاب الزجاجي خلفهما، فتناثر الزجاج في كل اتجاه. صرخت الفتاة وهي ما زالت نصف واعية. اصطدم الجسدان بقوة وسقطا على الأرض يتدحرجان. المسدس انزلق من يد الزائر وارتطم بالأرض بعيدًا.

صرخ الدكتور مجدي:

— عبد القادر... المسدس!

لكن عبد القادر كان منشغلاً بالقتال. يد الزائر الباردة أطبقت على عنقه بقوة غير طبيعية، والأصابع المجعّدة تضغط كأنها حديد. وجه عبد القادر احمرّ، وعيناه جحظتا أكثر. رفس بكل قوته، فتدحرجا مرة أخرى حتى اصطدما بقاعدة مائدة العمليات.

انتهز مجدي الفرصة. ركض نحو المسدس والتقطه بيد مرتجفة. صوّبه نحو الجسدين المتصارعين وصرخ:

— اتركه!

الزائر رفع رأسه ببطء، والدم لا يسيل من وجهه رغم الضربات. ابتسم ابتسامته البطيئة وقال بصوت الغرغرة:

— جسد ميت... لا يؤلمه شيء.

ثم دفع عبد القادر بقوة هائلة ألقته إلى الخلف باتجاه الحائط. نهض الزائر ببطء، وملابسه الفضفاضة تمزقت في أماكن عدة، لكن حركاته بقيت باردة ومنضبطة. اتجه نحو مجدي مرة أخرى.

في تلك اللحظة تذكر مجدي الزجاجة.

رمى المسدس إلى عبد القادر الذي التقطه بصعوبة، ثم اندفع نحو الرف الزجاجي المكسور وانتزع زجاجة الأثير الكبيرة. فتحها بسرعة وسكب جزءًا منها على الأرض قرب المدفأة المشتعلة التي كان الزائر قد طلب إشعالها سابقًا. اللهب قفز فورًا.

صرخ الزائر لأول مرة بصوت مختلف، أعلى، أقل بشريًا:

— لا...!

اندفعت النيران بسرعة مع أبخرة الأثير، وامتدت نحو زجاجات الكحول الأخرى في الغرفة. اشتعل المكان في ثوانٍ. الزائر تراجع نحو الجدار، أطرافه بدأت تتلوى بطريقة غير طبيعية، كأنها تفقد السيطرة على الجسد المستعار. حاول أن يصل إلى الباب، لكن اللهب كان أسرع.

عبد القادر فكّ قيود الفتاة بسرعة ورفعها بين ذراعيه. صرخ مجدي:

— اخرجوا... الآن!

اندفع الثلاثة نحو الباب الخارجي وسط الدخان المتصاعد. خلفهم كانت النيران تلتهم غرفة العمليات، وصوت غريب غير بشري يرتفع من وسط اللهب ثم يضعف تدريجيًا... حتى اختفى.

خرجوا إلى الشارع يسعلون. الفتاة كانت شبه مغمى عليها، وعبد القادر يلهث والدماء تسيل من جرح في جبهته. وقف مجدي ينظر إلى عيادته التي تشتعل، وأضواء سيارة الإطفاء تبدأ في الاقتراب من بعيد.

في أذنيه، أو ربما في رأسه فقط، سمع للحظة أخيرة همسًا بعيدًا يشبه الغرغرة، يضعف ويضعف حتى تلاشى تمامًا:

— نحن... كثيرون...

ثم لم يبقَ إلا صوت النيران وصرير الصفارات في الليل.

لكن الدكتور مجدي، وهو يقف في الشارع ويراقب عيادته تحترق، عرف في داخله أن شيئًا ما لم ينتهِ بعد.

النار أكلت جثة واحدة...

لكن الظلال التي جاءت من عالم آخر كانت أكبر من غرفة عمليات صغيرة.

الفصل التاسع

الصباح التالي

عندما أشرقت الشمس، كانت عيادة الدكتور مجدي قد تحولت إلى هيكل أسود مدخن. الجدران الخارجية ما زالت قائمة، لكن السقف انهار في جزء كبير من غرفة العمليات، والرائحة الحادة للأثير المحترق والخشب المتفحم تملأ الشارع كله.

وقف مجدي على الرصيف المقابل، وعيناه محمرتان من الدخان وقلة النوم. بجانبه جلست الفتاة — التي عرف أخيرًا أن اسمها ليلى — ملفوفة ببطانية أحضرها أحد الجيران، وعبد القادر يضغط على جرح جبهته بمنديل مبلل. سيارات الإطفاء انصرفت قبل ساعة، ورجال الشرطة بدأوا في طرح الأسئلة الروتينية.

الضابط الشاب الذي تولى التحقيق نظر إلى مجدي نظرة متعبة وقال:

— إذن أنت تقول إن رجلاً مسلحًا اقتحم العيادة، قيّد الفتاة، وحاول قتلكم، ثم اشتعل الحريق بسبب زجاجة أثير؟

أجاب مجدي بصوت أجش:

— ليس رجلاً عاديًا. كان... جثة. جثة عزيز حسن التي اختفت من المشرحة. شيء ما كان يسيطر عليها.

صمت الضابط لحظة، ثم كتب شيئًا في دفتره دون أن يرفع عينيه.

— جثة تتحرك وتمسك مسدسًا وتتحدث؟

— نعم.

رفع الضابط رأسه ونظر إليه طويلاً. خلفه كان ضابط آخر يهمس لزميل له ويشير برأسه نحو مجدي. بعد دقائق جاء ضابط أكبر سنًا، ابتسم ابتسامة مهذبة باردة وقال:

— الدكتور... أنت مرهق جدًا، وهذا مفهوم بعد ما حدث. سنسجل بلاغًا بمحاولة سطو مسلح وحريق. أما موضوع الجثة... فربما يكون الأفضل أن تمر على مستشفى الصحة النفسية للكشف، فقط للاطمئنان.

حاول مجدي أن يشرح أكثر: الجثث المختفية، الأحلام، المرضى الغريبين، التشويش الراديوي. لكن كلما تكلم أكثر، كانت النظرات تزداد برودًا وشكًا. في النهاية أخذوا إفادته المختصرة، وسمحوا له ولليلى وعبد القادر بالانصراف بعد أن سجلوا عناوينهم.

بعد الظهر، عاد مجدي وحده إلى بقايا العيادة.

الشرطة كانت قد انصرفت. الرماد ما زال ساخنًا في بعض الأماكن. سار بحذر بين الأنقاض حتى وصل إلى ما تبقى من غرفة العمليات. معظم الأثاث تحول إلى فحم، لكن شيئًا صغيرًا لفت انتباهه قرب الزاوية التي سقط فيها الزائر آخر مرة.

انحنى والتقطه.

كان قطعة صغيرة من الجلد المجفف، رمادية اللون، لم تحترق تمامًا. عندما لمسها بأصابعه أحس بالبرودة نفسها التي شعر بها في الليلة الأولى. بجانب القطعة، على الأرض المتفحمة، كانت هناك علامات سوداء غريبة كأنها آثار أصابع سُحبت نحو الحائط... ثم اختفت فجأة.

رفع مجدي رأسه ونظر إلى السقف المحترق. في أذنه، أو في ذاكرته، عاد الهمس البعيد للحظة قصيرة جدًا:

— نحن كثيرون...

أخرج دفتر ملاحظاته الذي كان في جيب معطفه الخارجي — أحد الأشياء القليلة التي نجت — وكتب بسرعة:

«الجثة احترقت. لكن شيئًا ما خرج قبل أن تكتمل النار. الجلد المتبقي بارد. العلامات على الأرض تنتهي فجأة. السلطات لا تصدق. ليلى وعبد القادر معي... لكننا وحدنا.»

أغلق الدفتر ووقف وسط الرماد.

في الشارع كانت الحياة تبدو طبيعية: سيارات، باعة، أطفال يلعبون. لكن الدكتور مجدي عرف الآن أن الطبيعية مجرد قشرة رقيقة.

الغزو لم يُهزم في غرفة عمليات صغيرة.

هو فقط... انتقل إلى مكان آخر.

الفصل العاشر

الانتشار

مرّت ثلاثة أيام على الحريق.

الدكتور مجدي كان يقيم مؤقتًا في شقة صغيرة مستأجرة في حي قريب، بعيدًا عن أنقاض العيادة. ليلى جاءت في اليوم الثاني تحمل دفترًا صغيرًا ودفاتر ملاحظات طبية

قديمة جمعتها من مستشفى كانت تعمل فيه سابقًا كممرضة متدربة. عبد القادر كان يمرّ عليهما كل مساء، صامتًا في معظمه، يجلس في الزاوية ويسمع دون أن يتكلم كثيرًا.

في الليلة الثالثة فتح مجدي خريطة قديمة للقاهرة وبسطها على الطاولة. وضع عليها دبابيس صغيرة حمراء في المواقع التي عرفها حتى الآن: مشرحة القصر العيني، عيادته المحترقة، ومستشفى آخر في مصر الجديدة سمع عن حالة غريبة فيه بالصدفة.

قال وهو يشير إلى النقاط:

— ثلاثة مواقع فقط نعرفها. لكن إذا كان ما رأيناه حقيقيًا... فلن يتوقف عند هذا.

ليلى فتحت دفترها وبدأت تقرأ بصوت خافت:

— في مستشفى القصر العيني نفسه، قبل الحريق بيومين، سُجلت حالتان لمرضى دخلا بسبب إغماء مفاجئ. كلاهما كان شاحبًا جدًا، والعينان فارغتين. أحدهما توفي بعد ساعات، ونُقلت جثته إلى المشرحة... الثلاجة رقم (12) هذه المرة. الجثة اختفت في الليلة التالية.

عبد القادر رفع رأسه لأول مرة:

— وأنا سمعت من سائق إسعاف أعرفه... في مستشفى في الجيزة حصلت حاجة شبه كده. مريض خرج من العناية المركزة يمشي لوحده في نص الليل، والكاميرات ورّت ظل بس. بعدين لقوه في المشرحة... نايم في ثلاجة فاضية.

صمت الثلاثة لحظة. مجدي أخذ قلمًا وأضاف دبوسين جديدين على الخريطة.

خلال اليومين التاليين اتسع النطاق أكثر.

اتصلت ليلى بزميلة قديمة تعمل في مستشفى خاص بالمعادي. الزميلة همست لها عبر الهاتف أن هناك ثلاثة مرضى في قسم الداخلية ظهرت عليهم الأعراض نفسها خلال أسبوع: شحوب شديد، صوت أجش متقطع، ونظرات فارغة. أحدهم حاول أن

يهاجم ممرضة ليلاً قبل أن يُهدَّأ بالقوة. بعد الحادثة بساعات وُجد ميتًا في سريره... والجثة تأخرت في الوصول إلى المشرحة لسبب غير واضح.

في المساء نفسه جاء عبد القادر بخبر جديد:

— في مشرحة أخرى تبع وزارة الصحة... اختفت جثتان في ليلة واحدة. والحارس اتشال من شغله عشان قال إنه شاف واحد منهم ماشي.

جلس مجدي ينظر إلى الخريطة التي امتلأت الآن بثمانية دبابيس حمراء موزعة على أحياء مختلفة. رفع رأسه وقال بصوت منخفض:

— هم لا يحتاجون إلى أن يأتوا كلهم من الخارج. يكفي جثة واحدة... أو مريض ضعيف. بعد ذلك ينتشر كأن المرض ينتقل من جسد إلى جسد.

ليلى أغلقت دفترها ببطء.

— وإذا كانوا يختارون المستشفيات والمشارح عمدًا؟ الأماكن التي تكثر فيها الأجساد الضعيفة أو الميتة...

أكمل مجدي الجملة وهو ينظر إلى النافذة:

— وال أماكن التي لا يصدق فيها أحد قصة عن جثث تمشي.

في تلك الليلة لم ينام أحد منهم جيدًا.

على الطاولة بقيت الخريطة مفتوحة، والدبابيس الحمراء تلمع تحت ضوء المصباح الضعيف كأنها جروح صغيرة على وجه المدينة.

وفي مكان ما خارج الشقة، في مستشفى أو مشرحة لم يصلوا إليها بعد، كانت خطوة بطيئة أخرى تُرفع... وتُوضع.

الفصل الحادي عشر

الحلفاء والظل

في الليلة الخامسة بعد الحريق، جلس الثلاثة حول الطاولة الصغيرة في الشقة المستأجرة: الدكتور مجدي، وليلى، وعبد القادر. الخريطة أمامهم مليئة بالدبابيس الحمراء، ودفتر الملاحظات أصبح أثقل من أن يُحمل بسهولة.

قال مجدي وهو ينظر إلى النقاط المتناثرة:

— نحن ثلاثة فقط. والشيء الذي نواجهه لم يعد جثة واحدة في عيادة صغيرة.

ليلى رفعت رأسها. كان وجهها ما زال شاحبًا، لكن عينيها تحملان الآن تصميمًا لم يكن هناك في الليلة الأولى.

— أنا كنت هناك. رأيته يضع يده على جبهتي. شعرت بشيء يحاول الدخول... لن أجلس وأنتظر حتى يحدث لغيري.

عبد القادر أخرج علبة سجائر قديمة، أشعل واحدة، وقال بصوته الخشن:

— أنا مش فاهم كل الكلام عن عوالم تانية... بس اللي شفته بعينى يكفي. الجثة دي كانت بتتحرك، وكانت بتقرا أفكارك. ولو في ناس تانيين زيها... يبقى لازم نوقفهم قبل ما يكثروا.

صمت قصير. ثم مدّ مجدي يده ووضعها على الخريطة.

— إذن نحن متفقون. نعمل معًا.

في الليلة التالية جاءت الفرصة الأولى ليختبروا هذا الاتفاق.

اتصال قصير من حسين، رئيس قسم التشريح. صوته كان مبحوحًا ومتوترًا:

— مجدي... الثلاجة رقم (4) الليلة. الجثة تحركت. الحارس اتصل بي هاربًا. أنا داخل الآن... لوحدى.

لم يترددوا. سيارة عبد القادر القديمة انطلقت بهم عبر الشوارع شبه الفارغة حتى وصلوا إلى الباب الخلفي للمشرحة. الداخل كان مظلمًا إلا من مصابيح الطوارئ الحمراء الضعيفة. رائحة الفورمالين اختلطت برائحة أخرى أبرد وأقدم.

وجدوا حسين واقفًا أمام الثلاجة المفتوحة، وجهه أبيض كالجير. داخل الثلاجة كانت الجثة نصف جالسة، العينان مفتوحتان، والفم يتحرك ببطء كأنه يهمس. عندما سمعت خطواتهم، التفت الرأس بزاوية غير طبيعية ونظر إليهم.

عبد القادر لم ينتظر. رفع قطعة حديدية قصيرة كان قد أحضرها معه واندفع إلى الأمام. ليلى أمسكت بجهاز كهربائي صغير محمول كانت قد جلبته من مستشفاها السابق — جهاز صدمات قوي — ووجهته نحو الجثة. مجدي صاح:

— الآن!

الصعقة الكهربائية لمست الصدر الشاحب. الجثة ارتعشت بعنف، وأطلقت صوتًا غير بشري عاليًا، ثم سقطت إلى الخلف داخل الثلاجة. عبد القادر أغلق الباب بقوة وأدار القفل مرتين.

وقف الثلاثة يلهثون. حسين انزلق إلى الأرض مستندًا إلى الحائط.

لكن في اللحظة التي اعتقدوا فيها أن الأمر انتهى، سمعوا صوتًا خافتًا قادمًا من أعماق الممر الآخر في المشرحة... صوت غرغرة بعيد، يتكرر كصدى:

— نحن... كثيرون...

ثم صمت.

خرجوا إلى الليل والهواء البارد يلطم وجوههم. ليلى كانت ترتجف، وعبد القادر يمسح الدم من يده التي جُرحت في الاشتباك. مجدي وقف ينظر إلى مبنى المشرحة الطويل وقال بصوت منخفض جدًا:

— هذه ليست النهاية. هذه مجرد البداية.

رفع رأسه نحو السماء الداكنة فوق القاهرة. للحظة بدت النجوم أبعد وأكثر برودة من أي وقت مضى.

همس، كأنما يخاطب شيئًا لا يُرى:

— أنتم قادمون من عالم آخر... لكن هذه المرة لن تجدوا المدينة نائمة.

خلفهم، في أعماق المشرحة المظلمة، بقيت ثلاجة واحدة مغلقة...

وفي مكان ما أبعد من ذلك، كانت ظلال جديدة تتحرك ببطء، تستعد للخطوة التالية.

انتهى الجزء الثاني.

الفصل الثاني عشر

الخيط الأخير

في الليلة التاسعة بعد الحريق، كان الضوء الوحيد في الشقة يأتي من مصباح طاولة قديم يغطي الخريطة بالنور الأصفر الضعيف. الدبابيس الحمراء أصبحت أكثر من اثني عشر، وبعضها وُضع فوق بعض في مناطق المستشفيات الكبرى.

ليلى كانت تقرأ من ورقة مطبوعة أحضرتها بعد ظهر ذلك اليوم. صوتها كان هادئًا لكنه متوتر:

— في تقرير الرصد الفلكي لحلوان... التشويش الراديوي لم يتوقف. بالعكس، ازداد في الليالي الثلاث الأخيرة. والمصدر... ليس من الفضاء الخارجي مباشرة. الإشارة ترتد من نقطة داخل القاهرة نفسها.

مجدي رفع رأسه بسرعة.

— أين بالضبط؟

أشارت ليلى إلى مكان على الخريطة، جنوب حي المعادي، قرب منطقة مخازن قديمة ومستودع أدوية مهجور يتبع إحدى الشركات الحكومية منذ سنوات.

— هنا. الإشارات تتركز فوق هذا المبنى. وفي التقارير الداخلية للمستشفيات القريبة... سُجلت أربع حالات اختفاء جثث خلال أسبوع واحد فقط من المشارح المجاورة. كلها نُقلت ليلاً باتجاه الجنوب... ثم اختفت من السجلات.

عبد القادر، الذي كان يقف قرب النافذة يدخن، التفت وقال بصوته الخشن:

— أنا أعرف المكان. مستودع كبير، ثلاثة أدوار، والطابق السفلي مقفول من سنين. الناس بتقول عليه مسكون... بس دلوقتي فهمت ليه.

صمت ثقيل ملأ الغرفة. مجدي سار نحو الخريطة ووضع إصبعه على النقطة السوداء التي رسمتها ليلى.

— إذا كانت الإشارات تأتي من هناك... فهناك يتجمعون. أو هناك يرسلون.

ليلى أغلقت الورقة ورفعت عينيها إليه.

— نذهب الليلة؟

نظر مجدي إلى عبد القادر. الرجل هزا رأسه مرة واحدة فقط، دون كلام. ثم قال مجدي بصوت منخفض لكنه حاسم:

— نعم. الليلة. قبل أن يزداد عددهم أكثر.

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كانت السيارة القديمة لعبد القادر تتوقف على مسافة مئتي متر من المستودع المهجور. المبنى يبدو ككتلة سوداء كبيرة تحت ضوء القمر الضعيف. النوافذ مكسورة أو مغطاة بألواح خشب، والباب الرئيسي مقفل بسلاسل صدئة. لكن من الطابق السفلي كان يتسرب ضوء خافت أزرق اللون، غير طبيعي، ينبض ببطء كأن قلبًا غريبًا ينبض تحت الأرض.

نزل الثلاثة من السيارة بهدوء. الهواء كان باردًا وثقيلًا، ويحمل رائحة تشبه الفورمالين المختلط بشيء معدني قديم. ليلى همست:

— الإشارات أقوى هنا... أشعر بها في رأسي كطنين خافت.

مجدي أمسك بحقيبة صغيرة تحتوي على زجاجات أثير وكحول وبطارية سيارة قديمة متصلة بأسلاك. عبد القادر حمل قطعة الحديد القصيرة وجهاز الصعق الذي استخدموه من قبل. تبادل الثلاثة نظرة أخيرة في الظلام.

ثم تحركوا نحو الباب الجانبي المكسور الذي يؤدي إلى الطابق السفلي.

خلفهم كانت المدينة نائمة.

وأمامهم... كان العش ينتظر.

الفصل الثالث عشر

العش

الباب الجانبي كان مكسورًا من الأسفل. عبد القادر دفعه بكتفه بصمت، ففتح بما يكفي ليمروا واحدًا تلو الآخر. الدرج المؤدي إلى الطابق السفلي كان ضيقًا ومظلمًا، ورائحة الفورمالين المختلطة بالمعدن الرطب تزداد مع كل خطوة يهبطونها.

الضوء الأزرق الخافت كان ينبض من أسفل، كأنه يتنفس.

عندما وصلوا إلى آخر درجة، تجمد الثلاثة في مكانهم.

القاعة السفلية كانت واسعة، أعمدة خرسانية قديمة تحمل السقف المنخفض. في الوسط، وعلى مسافات متفرقة، كانت هناك أجساد.

بعضها يقف ساكنًا تمامًا كالتماثيل، عيونها مفتوحة فارغة، رؤوسها مائلة بزوايا غريبة. بعضها الآخر نصف جالس أو مستلقٍ على الأرض الباردة، الصدور ترتفع وتنخفض ببطء غير طبيعي. ملابس المستشفيات البيضاء اختلطت بملابس مدنية رثة، ووجوه شاحبة مألوفة من التقارير التي جمعوها: مرضى اختفوا، جثث سُرقت، حراس لم يعودوا.

في الزاوية البعيدة، فوق طاولة معدنية قديمة، كان هناك جهاز مرتجل: أسلاك متشابكة، قطع من أجهزة راديو قديمة، وهوائي بدائي يمتد نحو السقف. الضوء الأزرق ينبض منه بانتظام، ومع كل نبضة كان طنين خافت يمر في الرؤوس كهمس جماعي.

ليلى همست بصوت بالكاد يُسمع:

— إنهم... كثيرون.

أحد الأجساد الواقفة التفت ببطء نحوهم. ثم آخر. ثم ثالث. العيون الفارغة تثبّتت عليهم في وقت واحد، كأنها رأتهم فجأة. فم أحدهم انفتح، وخرج الصوت الغرغري نفسه الذي سمعوه مرات كثيرة، لكن هذه المرة جاء من أكثر من حنجرة في آن واحد، متداخلاً ومتعدد الطبقات:

— وصلتم... أخيرًا.

عبد القادر لم ينتظر المزيد. رفع جهاز الصعق واندفع نحو أقرب جسد. الشرارة الزرقاء لمست الصدر الشاحب، فاهتز الجسد بعنف وسقط إلى الخلف. في اللحظة نفسها تحركت الأجساد الأخرى.

اثنان هجما على مجدي. ثالث اتجه نحو ليلى. الباقون بدأوا يتحركون ببطء في البداية ثم بسرعة متزايدة، كأن الإشارة الجماعية أيقظتهم جميعًا دفعة واحدة.

مجدي رمى زجاجة أثير نحو مجموعة منهم وانسحب إلى الخلف. عبد القادر كان يضرب بكل قوته، قطعة الحديد تصطدم بعظام وأجساد باردة لا تصرخ من الألم. ليلى استخدمت جهاز الصعق مرة بعد مرة، وفي كل مرة كان جسد يسقط ثم يحاول النهوض من جديد.

الضوء الأزرق على الطاولة ازداد نبضه فجأة، والطنين في الرؤوس أصبح صراخًا صامتًا. أحد الأجساد اقترب من الجهاز ومد يده نحوه كأنه يتلقى أمرًا جديدًا.

مجدي رأى ذلك وصرخ:

— الجهاز... دمروا الجهاز!

لكن المسافة كانت مزدحمة بالأجساد المتحركة، والقاعة الضيقة تحولت إلى فوضى من الظلال الشاحبة والأيدي الباردة والأصوات المتداخلة التي تقول كلها في وقت واحد:

— نحن كثيرون...

نحن كثيرون...

نحن كثيرون...

القتال كان قد بدأ بالفعل.

ولم يكن هناك طريق للعودة إلى أعلى الدرج بسهولة.

الفصل الرابع عشر

الثمن

القاعة السفلية تحولت إلى جحيم متحرك.

الأجساد الشاحبة كانت تأتي من كل اتجاه، بعضها يمشي ببطء ثقيل، وبعضها يندفع بسرعة غير متوقعة. الضوء الأزرق على الطاولة المعدنية ينبض بسرعة جنونية الآن، ومع كل نبضة كان الطنين في الرؤوس يتحول إلى صراخ داخلي يكاد يشق الجمجمة.

مجدي سكب آخر زجاجة أثير على مجموعة من الأجساد القريبة وأشعلها بولاعة عبد القادر. اللهب قفز بسرعة بين الملابس الرثة والجلد الجاف، وملأ الهواء برائحة حرق كريهة. عدة أجساد اشتعلت وسقطت تتحرك وهي تشتعل، لكن أخرى تجاوزت النيران واستمرت في التقدم.

ليلى كانت تتراجع نحو العمود الخرساني وهي تستخدم جهاز الصعق حتى احترقت دائرةه. جسد طويل نحيل أمسك بشعرها من الخلف وسحبها، فصرخت. عبد القادر وصل في اللحظة الأخيرة وضرب الرأس الشاحب بكل قوته حتى سمع صوت تكسر، ثم دفع ليلى خلفه.

— اذهبوا نحو الجهاز! — صرخ مجدي. — اقطعوا الأسلاك!

اندفع الثلاثة وسط الفوضى. مجدي وصل أولاً إلى الطاولة وبدأ يقطع الأسلاك بيديه العاريتين، متجاهلاً الشرارات التي تلسع جلده. الضوء الأزرق تذبذب بعنف. ليلى ساعدته، بينما عبد القادر يقف أمامهما كجدار بشري، يصد الهجمات واحدة بعد أخرى.

فجأة... اخترقت يد باردة صدر عبد القادر من الخلف.

الجسد الذي جاء من الظل كان أسرع من الباقين. الأصابع المجعّدة غرست نفسها بين أضلاعه بقوة هائلة. عبد القادر توقف لحظة، وعيناه اتسعتا. نظر إلى مجدي وليلى، وحاول أن يتكلم، لكن الدم فقط خرج من فمه.

بصوت مبحوح قال:

— كملوا...

ثم سقط على ركبتيه.

مجدي صرخ باسمه واندفع نحوه، لكن ليلى أمسكت ذراعه بقوة وأشارت إلى الجهاز الذي بدأ يتصدع. الضوء الأزرق انفجر فجأة في موجة صامتة، فاندفعت كل الأجساد في القاعة إلى الخلف كأنها ضُربت بموجة واحدة. بعضها سقط ولم يقم، وبعضها الآخر بدأ يتلوى كأنه يفقد الصلة بما يتحكم فيه.

مجدي ركض إلى عبد القادر ورفعه. الدم كان ينزف بغزارة من صدره. الرجل نظر إليه للمرة الأخيرة، وابتسم ابتسامة صغيرة متعبة، ثم استرخى في ذراعيه.

ليلى كانت تبكي وهي تقطع آخر الأسلاك. الجهاز انهار تمامًا، وال ضوء الأزرق انطفأ دفعة واحدة. الظلام ملأ القاعة، ولم يبقَ إلا صوت النيران التي ما زالت تلتهم الزاوية البعيدة، ورائحة اللحم المحترق، وأنين خافت يموت تدريجيًا.

حملوا عبد القادر نحو الدرج. جسده كان ثقيلًا وساكنًا. خلفهم كانت القاعة تشتعل أكثر فأكثر، والسقف يبدأ في التصدع.

عندما خرجوا إلى الليل، كان الدخان الأسود يتصاعد من فتحات المستودع، وصفارات الإطفاء والشرطة تقترب من بعيد. وضعوا عبد القادر على الأرض برفق. ليلى جلست بجانبه تمسك يده، ومجدي ركع يبحث عن نبض لم يعد موجودًا.

في السماء فوقهم كانت النجوم باردة وبعيدة.

وفي الصمت الذي أعقب الصراخ، عرف الاثنان أن العش قد دُمّر...

لكن الثمن كان أكبر مما احتملا.

الفصل الخامس عشر

الرماد

الفجر كان يزحف ببطء على أطراف المعادي عندما توقف مجدي وليلى أخيرًا عن الجري.

كانا قد قطعا مسافة طويلة على الأقدام بعد أن تركا سيارة عبد القادر قرب المستودع المحترق. الدخان ما زال يتصاعد خلفهما في الأفق، وصفارات الإطفاء والشرطة تملأ الحي. ليلى كانت تسعل بعنف، وملابسها ممزقة ومغطاة بالرماد. مجدي يمسك بذراعها كي لا تسقط، ويده الأخرى تضغط على جرح عميق في كتفه الأيسر لم يكن قد شعر به أثناء القتال.

جلسا على رصيف مهجور قرب حديقة صغيرة مغلقة. لوقت طويل لم يتكلم أحد. فقط صوت تنفسهما المتقطع وصوت المدينة التي تستيقظ دون أن تعرف ماذا حدث تحتها في تلك الليلة.

أخيرًا قالت ليلى بصوت مبحوح:

— عبد القادر... مات عشاننا.

مجدي لم يرد فورًا. كان ينظر إلى يديه الملطختين بالدم والرماد. ثم قال بصوت منخفض:

— مات عشان كل اللي لسه ما اتحكموش فيهم.

صمت مرة أخرى. بعد قليل أخرجت ليلى من جيبها قطعة صغيرة معدنية مشوهة كانت قد التقطتها من قرب الجهاز قبل أن ينهار تمامًا. كانت جزءًا من الهوائي البدائي، وما زالت دافئة قليلاً.

— الجهاز اتحطم — قالت. — الضوء الأزرق اختفى. الأجساد وقعت. المفروض يكون انتهى.

مجدي أخذ القطعة منها وقلّبها بين أصابعه. فجأة شعر بشيء خفيف جدًا، كطنين بعيد يأتي من داخل المعدن نفسه. رفع رأسه بسرعة ونظر إلى ليلى.

— تسمعين هذا؟

ليلى اقتربت، أغلقت عينيها لحظة، ثم فتحتهما بفزع.

— نعم... ضعيف جدًا. لكنه موجود.

في الجيب الداخلي لمعطفه وجد مجدي دفتر ملاحظاته الذي نجا بأعجوبة. فتحه على آخر صفحة وكتب بخط مرتجف:

«العش دُمّر. عبد القادر رحل. لكن الإشارة لم تمت تمامًا. شيء ما ما زال يرسل... من مكان أبعد.»

رفع عينيه نحو الأفق الشرقي حيث بدأت الشمس تشرق خلف المباني. الضوء كان عاديًا، والمدينة تبدأ يومها ككل يوم: سيارات، باعة، ناس تذهب إلى أعمالها. لا أحد يعرف أن تحت أحد المستودعات احترقت عشرات الأجساد المتحركة، وأن رجلاً طيبًا سقط كي يتوقف النبض الأزرق.

ليلى قالت وهي تنظر إلى القطعة المعدنية:

— لو الإشارة لسه موجودة... يبقى في مصدر تاني. أو بذرة جديدة.

مجدي أغمض عينيه لحظة. في الظلام خلف جفنيه رأى وجه عبد القادر مرة أخيرة، ثم الوجوه الشاحبة الكثيرة، ثم الهمس القديم الذي لم يعد يفارقه:

— نحن كثيرون...

فتح عينيه وقال بصوت هادئ لكنه قاسٍ:

— إذن لم ننتهِ بعد.

وقفا معًا. الجرح في كتف مجدي كان ينزف ببطء، ووجه ليلى مغطى بالرماد والدموع الجافة. أمامهما كانت المدينة الكبيرة تستيقظ، وخلفهما كان الرماد لا يزال ساخنًا.

وفي مكان ما أبعد من المعادي، أبعد من القاهرة ربما، كانت نبضة خافتة جدًا تنتظر الوقت المناسب لتعود أقوى.

الفصل السادس عشر

الباب المفتوح

مرّ أسبوع على ليلة المستودع.

الجرائد كتبت عن حريق كبير في مخزن أدوية مهجور جنوب المعادي، وعن العثور على بقايا بشرية متعددة لم يُتعرف على معظمها. الشرطة تحدثت عن «حادث عرضي» و«تخزين غير قانوني لمواد قابلة للاشتعال». لم يذكر أحد عبد القادر. لم يذكر أحد الضوء الأزرق أو الأجساد التي كانت تتحرك قبل أن تشتعل.

الدكتور مجدي كان يجلس في غرفة صغيرة مختلفة هذه المرة، في حي أبعد. كتفه ما زال مضمّدًا، والحركة في ذراعه اليسرى لم تعد كما كانت. ليلى جاءت في المساء كما اعتادت منذ تلك الليلة، تحمل معها قهوة ودفترًا جديدًا شبه فارغ.

جلسا وقتًا طويلاً دون كلام. خارج النافذة كانت القاهرة تبدو عادية تمامًا: أضواء السيارات، أصوات الباعة، ضحكات من شرفة قريبة. لا شيء يدل على أن شيئًا جاء من عالم آخر وحاول أن يزرع نفسه في أجساد المدينة.

ليلى قالت فجأة بصوت خافت:

— أحيانًا أصحو في الليل وأشعر أن أحدًا يقف خلف الباب.

مجدي نظر إليها. لم يقل إنها تتوهم. هو أيضًا كان يسمع، في اللحظات بين النوم واليقظة، ذلك الهمس البعيد الذي يشبه الغرغرة. أحيانًا كلمة واحدة فقط: «قريبًا». وأحيانًا الصمت نفسه يكون أثقل من أي صوت.

أخرج من درج الطاولة القطعة المعدنية المشوهة التي التقطتها ليلى من العش. وضعها على الطاولة بين فنجاني القهوة. الاثنان نظرا إليها. للحظة بدت باردة وميتة... ثم شعر كلاهما، في الوقت نفسه، بطنين خافت جدًا يأتي من داخلها، كنبضة قلب بعيد يحاول أن يعود.

ليلى سحبت يدها بسرعة.

— لسه موجود.

مجدي أمسك بالقطعة وضمّها في كفه. نظر من النافذة نحو الأفق المظلم فوق المدينة الكبيرة. في مكان ما هناك، ربما في مشرحة أخرى، أو مستشفى، أو غرفة مغلقة لم يصل إليها أحد بعد، كانت بذرة جديدة تنتظر. الموجة الأولى انكسرت على صخرة من الإرادة والنار والتضحية... لكن الباب لم يُغلق تمامًا.

همس، كأنما يجيب على سؤال لم يُطرح:

— نحن أغلقنا عشاً واحدًا. هم... يفتحون أبوابًا جديدة.

في تلك الليلة، بعد أن رحلت ليلى، بقي مجدي جالسًا حتى الفجر. عندما أشرقت الشمس كانت المدينة تبدو هادئة ومشرقة وكأنها لم تعرف الرعب أبدًا. لكنه عرف، وهو يغلق النافذة، أن الهدوء مجرد قشرة.

وفي مكان ما خارج الزمن الذي يعرفه البشر، كانت كائنات بلا أجساد أصلية تراقب، وتنتظر، وتعدّ الموجة التالية.

الباب لم يُغلق.

هو فقط... أصبح مواربًا.

الجزء الرابع

عالمهم

الفصل أ

الكوكب المحتضر

لم يكن هناك سماء زرقاء في ذلك العالم.

السماء كانت دائمًا بلون الرماد الداكن، مثقلة بسحب كثيفة لا تتحرك إلا ببطء شديد، كأن الزمن نفسه أصابه الوهن. تحتها امتدت قارات متشققة، أرضها رمادية مائلة إلى السواد، متشققة كجلد كائن مات منذ آلاف السنين ولم يجد من يدفنه. الأنهار جفت منذ زمن بعيد، ولم يبقَ منها إلا أخاديد عميقة مليئة بغبار ناعم يتصاعد مع كل نسمة ضعيفة.

في الأفق كانت تسطع شمس باردة حمراء، أكبر مما ينبغي وأقرب مما يحتمل، ترسل ضوءًا خافتًا لا يمنح دفئًا حقيقيًا. حولها دارت أقمار ميتة، بعضها مكسور، وبعضها الآخر يدور في مدارات منحرفة كأنها فقدت سبب وجودها.

على سطح هذا الكوكب المحتضر، لم تعد هناك أجساد كما يعرفها أهل الأرض.

الكائنات هنا كانت في الأصل أشكالًا شفافة شبه غازية، وعيًا جماعيًا أكثر منها أفرادًا. كانت تتحرك عبر الشقوق والوديان الجافة كموجات بطيئة من الضوء الباهت، تتصل ببعضها دون كلمات، وتتقاسم الذكريات والآلام والحاجة نفسها: البقاء. لكن الموارد نفدت. الطاقة التي كانت تغذي وعيهم بدأت تنضب مع احتضار نجمهم. كل دورة شمسية جديدة كانت تأخذ معها جزءًا من قدرتهم على الاستمرار.

في أعماق أحد الأخاديد الكبرى، حيث كان الظلام أكثف، تجمع جزء كبير من ذلك الوعي الجماعي. لم يكن اجتماعًا بالمعنى البشري، بل تداخلاً بطيئًا للموجات، همسًا مشتركًا يمتد عبر الكوكب كله:

«الأجساد... نحتاج إلى أجساد.»

«هذا العالم يموت... والعوالم الأخرى مليئة بالأوعية.»

«الجثث أسهل... العقول الحية أقوى لكنها أخطر.»

«نرسل البذور... موجات رقيقة... عبر الفراغ.»

الشمس الحمراء كانت تغرب ببطء خلف الجبال المتآكلة، تلقي ظلالاً طويلة سوداء على الأرض الميتة. ومع غروبها ازداد الهمس كثافة، كأنه صلاة أخيرة أو حكم بالإعدام على عالم لم يعد يطيق حملهم.

في تلك اللحظة، انطلقت من أعماق الأخدود موجة رقيقة جدًا، غير مرئية، أسرع من الضوء تقريبًا، تحمل في طياتها أجزاءً صغيرة من الوعي الجماعي... بذورًا.

بذور تبحث عن أوعية جديدة في عوالم بعيدة لا تعرف بعد أنها أصبحت هدفًا.

أحد تلك العوالم كان يدور حول نجم أصفر متوسط...

كوكب أزرق صغير يسميه سكانه: الأرض.

الفصل ب

قواعد الاستيلاء

البذور التي انطلقت من الكوكب المحتضر لم تكن أجسادًا، ولا حتى أرواحًا بالمعنى الذي يعرفه أهل الأرض. كانت شظايا رقيقة من الوعي الجماعي، موجات متداخلة تحمل الذاكرة والحاجة والقدرة على الالتصاق. عندما تصل إلى عالم جديد، تبحث عن أقرب وعاء يمكن أن يحملها.

الجثث كانت الأسهل.

الجسد الميت فارغ تمامًا. لا إرادة تقاوم، لا ذاكرة حية تتعارض مع الإرادة الجديدة، لا نبض يرفض الدخيل. يكفي أن تتسلل الشظية عبر الفم أو العينين أو الجرح المفتوح، ثم تبدأ في إذابة ما تبقى من الدم المتجمد، وتحريك العضلات الباردة واحدة بعد أخرى. الذكريات القديمة لصاحب الجثة تبقى مسجّلة في الأنسجة العصبية كملفات مهجورة، فيستخدمها الدخيل ليتكلم اللغة المحلية ويفهم العادات ويبدو... مقبولاً قدر الإمكان. الجثة وسيلة انتقال سريعة، لكنها مؤقتة. بعد أيام أو أسابيع تبدأ في التداعي، فيحتاج الوعي إلى وعاء جديد أقوى.

الأجساد الحية كانت أصعب... وأخطر.

العقل البشري، خاصة العقول الذكية أو ذات الإرادة القوية، يقاوم. يشعر بالدخيل كطنين غريب في مؤخرة الرأس، أو كبرودة مفاجئة، أو كأفكار ليست له. كلما كان الإنسان أكثر وعيًا بنفسه، وأكثر ارتباطًا بذكرياته ومشاعره، صار الاستيلاء عليه أبطأ وأكثر استهلاكًا للطاقة. لذلك يفضلون المرضى الضعفاء، أو النائمين، أو من هم على حافة الموت. الدخول يتم تدريجيًا: أولاً قراءة السطح (الأفكار القريبة، المخاوف، الأسماء)، ثم التوغل أعمق حتى يُطمس الصوت الأصلي أو يُحاصر في زاوية مظلمة من الذهن.

قراءة الأفكار لم تكن سحرًا.

الوعي الجماعي بطبيعته موجة. والعقل البشري، عندما يفكر، يطلق ترددات دقيقة غير محسوسة. الشظية الدخيلة تلتقط هذه الترددات كما يلتقط الراديو الإشارة، فتعرف ما ينوي الخصم فعله قبل أن يتحرك، وتعرف أين يخاف، وأين يمكن كسره.

أما الانتقال بين جسد وآخر فيتم بإحدى طريقتين:

إما باللمس المباشر (من الفم أو الجبهة أو الجرح)، أو عبر الموجة القصيرة إذا كان الجسدان قريبين والجهاز العصبي للضحية ضعيفًا. كلما ازداد عدد الشظايا في منطقة واحدة، صارت القدرة على الانتقال أسهل وأسرع، كأنهم يبنون شبكة.

لكن لهم نقاط ضعف واضحة عرفوها بالمرارة عبر عوالم سابقة:

النار تلتهم الوعاء بسرعة وتقطع الصلة قبل أن يتمكن الوعي من الهرب.

بعض المواد الكيميائية الحادة (كالأثير المركز أو مركبات معينة) تشوش الموجة وتجعل الالتصاق مستحيلاً مؤقتًا.

الترددات الكهربائية القوية جدًا تضرب الشظية نفسها كصدمة مباشرة.

أما الإرادة البشرية الصلبة، والإيمان العميق بشيء أكبر من الجسد، فكانا دائمًا العنصر الأكثر إزعاجًا... والأقل فهمًا لديهم.

على الكوكب المحتضر، كان الهمس الجماعي يردد هذه القواعد كقانون البقاء الوحيد:

«الجثة جسر... الجسد الحي بيت.

اقرأ الفكر قبل أن يقاوم.

ولا تقترب من النار... فهي تذكرنا بالنهاية.»

وهكذا وصلت البذور إلى الأرض، تحمل معها كل هذه المعرفة القديمة...

وتبحث عن أول جثة مناسبة في مدينة كبيرة قرب نهر.

الفصل ج

الضعف والعدو

على الكوكب المحتضر، حيث لا تشرق شمس دافئة ولا تهب رياح حقيقية، كان الوعي الجماعي يعرف أعداءه جيدًا.

لم يكونوا يعرفون الخوف بالمعنى البشري، لكنهم كانوا يعرفون... التهديد. الشيء الذي يقطع الموجة، ويفصل الشظية عن الوعاء، ويعيدهم إلى العدم البارد الذي ينتظرهم إذا نفدت الأجساد.

النار كانت العدو الأول.

اللهب لا يحرق الجسد فقط، بل يمزق الصلة نفسها. الموجة الرقيقة التي تُبقي الوعي ملتصقًا بالأنسجة تتبخر أمام الحرارة العالية قبل أن تستطيع الهرب إلى وعاء آخر. لذلك كانوا يتجنبون العوالم التي تكثر فيها النيران المفتوحة، أو يتعلمون إطفاءها بسرعة عندما يسيطرون على جسد جديد. في ذاكرتهم الجماعية صور قديمة لعوالم سابقة احترقت فيها مستعمرات كاملة لأن أحد الأوعية سقط في نار ولم يتمكن الباقون من إنقاذه في الوقت المناسب.

بعد النار جاءت المواد الحادة.

بعض المركبات الكيميائية — خاصة تلك التي تتبخر بسرعة وتخترق الأنسجة — كانت تشوش التردد الذي تعمل به الشظية. الأثير المركز، والكحول القوي، ومركبات أخرى لم يكونوا يفهمون أسماءها البشرية، كانت تجعل الالتصاق لزجًا وصعبًا، وأحيانًا مستحيلاً لساعات. لذلك كانوا يفضلون الأجساد البعيدة عن المختبرات والمستشفيات التي تكثر فيها هذه المواد... إلا إذا احتاجوا إليها كجسور سريعة.

ثم الترددات الكهربائية القوية.

الصدمة الكهربائية الحادة كانت تضرب الموجة مباشرة، كأنها تقطع حبلاً مشدودًا. الأجهزة التي تطلق شرارات عالية أو نبضات متكررة كانت تسبب لهم ألمًا حقيقيًا — إن صح أن نسمي ما يشعرون به ألمًا — وتجبر الشظية على الانسحاب أو التلاشي. لهذا السبب كانوا يكرهون الأماكن المليئة بالأسلاك المكشوفة والمولدات القديمة.

أما العدو الأكثر غموضًا والأقل قابلية للقياس فكان... الإرادة البشرية الصلبة.

عندما يلتقي الوعي الدخيل بعقل يؤمن بشيء أكبر من جسده — سواء كان إيمانًا دينيًا عميقًا، أو حبًا شديدًا لشخص آخر، أو مجرد رفض عنيد للخضوع — فإن الموجة تجد جدارًا غير مرئي. الجدار لا يُرى ولا يُلمس، لكنه يقاوم. أحيانًا ينكسر بعد وقت طويل، وأحيانًا أخرى يرتد الدخيل منه مجروحًا وضعيفًا. في الهمس الجماعي كانوا يسمون هذا الشيء «الضوضاء العالية» أو «الصوت الذي لا يُطفأ». ولم يجدوا له تفسيرًا كاملاً حتى الآن.

في أعماق الأخدود المظلم على كوكبهم المحتضر، كان الوعي الجماعي يردد هذه التحذيرات كقانون قديم:

«اجتنب النار... فهي النهاية السريعة.

احذر المواد التي تتبخر... فهي تفسد الالتصاق.

ابتعد عن الشرارات القوية... فهي تقطع الحبل.

وإذا واجهت الصوت الذي لا يُطفأ... انسحب. فهناك عقول لا تُؤخذ بسهولة.»

وهكذا وصلت البذور إلى الأرض وهي تحمل معها هذه المعرفة المريرة.

وكانت تعرف، حتى قبل أن تلمس أول جثة في مشرحة قرب النهر، أن هذا العالم الأزرق الصغير مليء بالأعداء...

وأن بعض أوعيته لن تستسلم بسهولة.

الفصل د

الموجة الأولى وما بعدها

البذرة الأولى وصلت إلى الأرض في ليلة هادئة قبل أشهر من الحريق.

كانت شظية رقيقة من الوعي الجماعي، أسرع من الضوء وأصغر من أن تُرصد بأي جهاز بشري. عبرت الفراغ البارد بين النجوم، موجهة بنداء بعيد كان يشبه الجوع أكثر مما يشبه الأمر. عندما دخلت الغلاف الجوي للكوكب الأزرق، تفتت إلى شظايا أصغر، وسقط معظمها في المحيطات أو الصحارى حيث لم تجد أوعية مناسبة. لكن واحدة منها فقط... وصلت إلى مدينة كبيرة تجري فيها الأنهار وتتكدس فيها الأجساد.

لماذا هذه المدينة؟

لم يكن الاختيار واعيًا بالمعنى البشري. المدينة كانت مكتظة، مليئة بالمستشفيات والمشارح، غنية بالأجساد الضعيفة والميتة التي تُنقل كل ليلة في صمت. النهر القريب كان يحمل رطوبة تساعد الموجة على البقاء أطول قليلاً قبل أن تجد وعاءها الأول. والأهم من ذلك: الإشارة الراديوية الخافتة التي كانت تنبعث من أجهزة البشر ليل نهار وفّرت خلفية مناسبة للشظية كي تختبئ ولا تُكتشف فورًا.

هبطت البذرة الأولى في مشرحة كبيرة قرب النهر.

وجدت جثة حديثة في ثلاجة باردة، فتسللت إليها عبر الفم المفتوح قليلاً، وأذابت الدم المتجمد، وحركت الأصابع واحدة بعد أخرى. كانت التجربة بطيئة ومرهقة، لكن الجثة أصبحت جسرًا. من خلالها أُرسلت إشارات قصيرة إلى الشظايا الأخرى التي كانت لا تزال تبحث. بدأت الموجة الأولى: جثة بعد جثة، مريض بعد مريض، همس ينتقل من مستشفى إلى آخر، ومن مشرحة إلى عيادة صغيرة في شارع هادئ.

الهدف لم يكن احتلال المدينة كلها دفعة واحدة.

الهدف كان بناء شبكة صغيرة مستقرة، ثم إرسال نداء أقوى نحو الكوكب المحتضر: «هنا أوعية... أرسلوا المزيد». إذا نجحت الموجة الأولى، تأتي الموجة الثانية أكبر وأسرع، ثم الثالثة حتى يصبح الوعي الجماعي قادرًا على الانتقال بكثافة حقيقية.

لكن شيئًا ما حدث في العيادة الصغيرة قرب المشرحة.

نار.

إرادة بشرية صلبة.

وأوعية رفضت أن تُؤخذ بسهولة.

الإشارة التي كانت ستنطلق قوية عادت ضعيفة ومشوشة. على الكوكب المحتضر، تلقّى الوعي الجماعي النداء المكسور وعرف أن الموجة الأولى تعرضت لضربة. بعض الشظايا فُقدت، والجسر الرئيسي احترق. لكن النداء لم يمت تمامًا. بقيت نبضة خافتة... بذرة واحدة على الأقل نجت وانتقلت إلى مكان أبعد داخل المدينة الكبيرة.

في الهمس الجماعي البطيء عبر الأخاديد الميتة، تردد القرار القديم مرة أخرى:

«الموجة الأولى تعثرت... لكن الباب فُتح.

أعدّوا الموجة التالية.

وابحثوا عن أوعية جديدة... أبعد من النار التي أحرقت الجسر.»

وعلى الأرض، في مدينة لا تزال تعتقد أن الحريق كان حادثًا عرضيًا، كانت النبضة الخافتة تنتظر.

هادئة.

صغيرة.

وجاهزة للبدء من جديد عندما يحين الوقت.

انتهى الجزء الرابع.